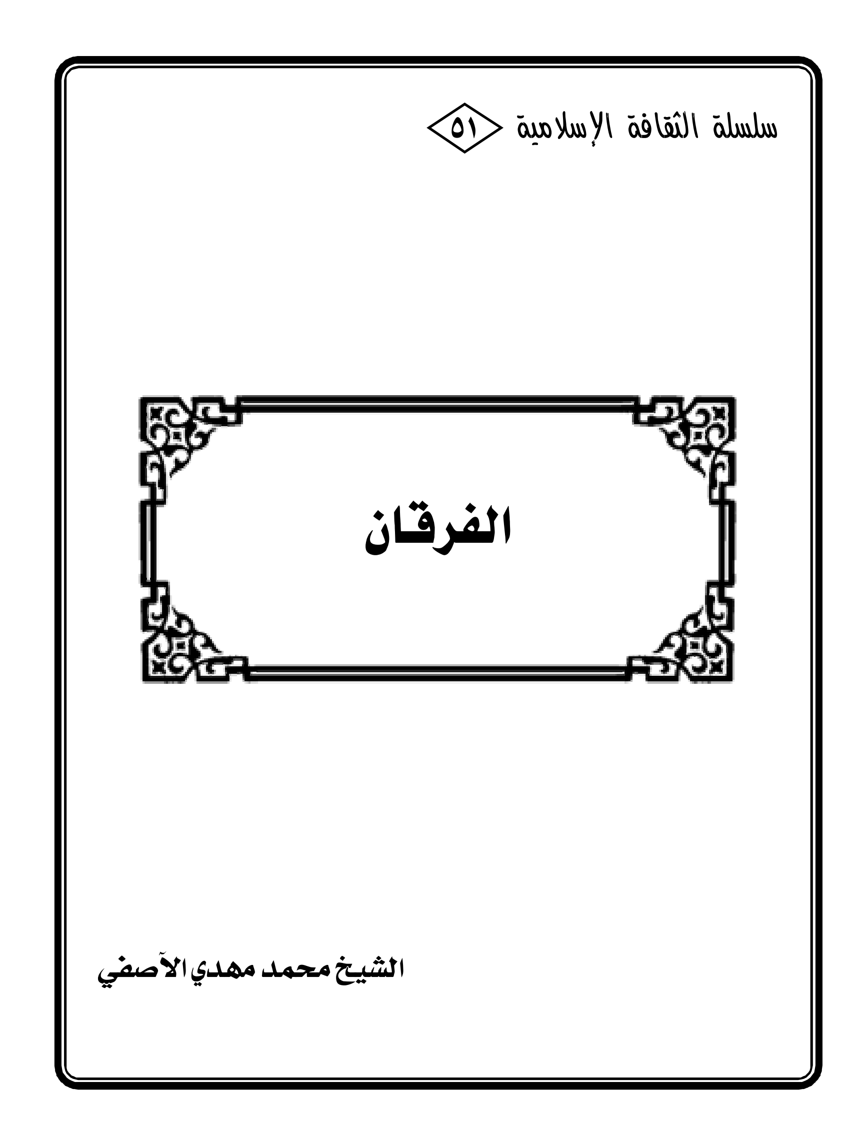


سلسلة الثقافة الإسلامية ٥١

الفرقان

الشيخ محمد مهدي الآصفي



مختارات منتقاة من محاضرات ومؤلفات
الشيخ محمد مهدي الآصفي حفظه الله

اسم الكتاب: .... الفرقان
المؤلف:... محمّد مهدي الآصفي
الطبعة الأولى: .... ١٤٣٠ هـ ـ ٢٠٠٩م
الكمية.. ٣٠٠٠ نسخة
المطبعة: .... مطبعة مجمع أهل البيت عليهم السلام النجف الأشرف

الفرقان

اللبس والفرقان:

في حياة الإنسان نوعان من التباس الحق بالباطل، وتشابك أحدهما بالآخر، فقد يلتبس الحق بالباطل في النفس، فلا يستطيع الإنسان أن يعرف الحق من الباطل ولا يتمكن من أن يميز أهل الحق من أهل الباطل.

وهذا نحو من التباس الحق بالباطل في الرؤية وداخل النفس، والنوع الثاني من التباس الحق بالباطل، تداخل أهل الحق وأهل الباطل في المجتمع، واختلاط هؤلاء بأولئك من دون فرز.

وجعل الله تعالى لكل (لبْس) (فرقان).

١ـ فرقان في النفس والرؤية مقابل اللبس في النفس والرؤية.

٢ـ فرقان في المجتمع مقابل اللبس في المجتمع.

وإليك تفصيل كل منهما:

١ـ الفرقان في النفس والرؤية

الفرقان في الأفكار والأشخاص:

الفرقان في مقابل اللَبْس.

وكما يكون اللبس يكون الفرقان.

واللبس، في الرؤية، قد يكون بين الحق والباطل داخل النفس، وقد يكون بين أهل الحق وأهل الباطل فقد يلتبس الأمر على الإنسان، فلا يميز الرأي الحق من الرأي الباطل من الآراء، وقد يلتبس الأمر على الإنسان، فلا يميز أهل الحق عن أهل الباطل.

وعليه فإن اللبس في الرؤية قد يكون في الأفكار وقد يكون في الأشخاص.

وكذلك (الفرقان) قد يكون في الأفكار، فيميز الإنسان الرأي الحق عن الرأي الباطل، وقد يكون في الأشخاص، فيميز الإنسان صاحب الحق عن صاحب الباطل، والصادق عن الكاذب والمنافق عن المؤمن.

وهذان فرقتان في النفس والرؤية.

فرقان في الرؤية بين الحق والباطل ﴿**قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ منَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوت وَيُؤْمِن بِاللّه فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[1].

وفرقان في الرؤية بين أهل الحق وأهل الباطل ﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ**﴾[2].

ولا شك إن كلاً منهما يمكن أن يكون دليلاً على الآخر، فقد تعرف الأشخاص بالأفكار، وقد تعرف الأفكار بالأشخاص، وكل منهما صحيح.

جاء رجل إلى أميرالمؤمنين عليه السلام في معركة (الجمل) وقد هزّه أن يرى نفسه في جند أميرالمؤمنين عليه السلام يقاتل أم المؤمنين عائشة وصاحبي رسول الله صلى الله عليه وآله الزبير وطلحة، فأظهر لأميرالمؤمنين عليه السلام ما في نفسه من الشك في أمر هذا الموقف، فقال له عليه السلام: «ويلك إنك لملبوس عليك، اعرف الحق تعرف

(١) البقرة: ٢٥٦.

(٢) الفاتحة: ٧.

أهله».

فعرّفه الإمام عليه السلام موضع الخطأ في تفكيره: انه يريد أن يعرف الحق والباطل بأُم المؤمنين والزبير وطلحة، وهذا هو خطأه، ولو عكس فعرف الحق والباطل أولاً، ثم عرف بهما أم المؤمنين والزبير وطلحة، لم يتردد لحظة واحدة في أن موقفه مع أميرالمؤمنين عليه السلام في قتال أم المؤمنين والزبير وطلحة حق، وأن موقف أم المؤمنين والزبير وطلحة في قتال أميرالمؤمنين عليه السلام باطل.

وهذا من معرفة الأشخاص بالأفكار، والعكس أيضاً صحيح فقد نعرف الأفكار بالأشخاص، ونعرف الحق والباطل بأهل الحق والباطل.

وقد صحّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «عليّ مع الحق والحق مع علي»[1].

(١) تاريخ الخطيب البغدادي ١٤: ٣٢١، منتخب كنز العمال، هامش مسند أحمد ٥: ٣٠، ومصادر أخرى كثيرة.

وصحّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إني تركت فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»[1].

فيكون علي عليه السلام ميزاناً للحق والباطل بعد رسول الله ﷺ، كما كان رسول الله ﷺ ميزاناً للحق والباطل نزن به الحق والباطل، فما وافقه فهو الحق، وما خالفه فهو الباطل.

وقد جعل رسول الله ﷺ في أمته من بعده معالم يهتدي بهم الناس فيما يقبل عليهم من الفتن، فقال لعمار بن ياسر رضي الله عنه: «تقتلك الفئة الباغية»، فكان عمار معْلماً من معالم الحق في فتنة (صفين) التي التبس فيها أمر الحق والباطل على كثير من الناس، فأعلن رسول الله ﷺ أن عمار رضي الله عنه من معالم الحق، فحيث يقف فهو الحق.

وقد عرّفنا الله تعالى الصراط المستقيم. بمن أنعم الله عليهم هذا الصراط فقال تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ

(١) صحيح الترمذي ٥: ٣٢٨، ح ٣٨٧٤، وغيره من المصادر الحديثة.

المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾[1].

فنعرف الصراط المستقيم بأصحابه، ونعرف صراط المغضوب عليهم وصراط الضالين بالذين غضب الله عليهم، وضلّوا عن الصراط.

هناك حقٌ نَعْرِفُ به أهل الحق، وحقٌ يُعرَفُ بأهل الحق، فالحق قد يكون دالاً، وقد يكون مدلولاً، وكل صحيح في موضعه، ولكن أيهما الأصل في الحلقة الأولى من هذا المسلسل؟

البيّنة:

يطرح القرآن فكرة (البيّنة) ويعتبرها الأساس والأصل في مسلسل الحق.

والبيّنة هي الحق الذي لا يمكن الشك فيه ولا يلتبس بالباطل، والرشد الذي لا يلابسه الغي ﴿تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ وهذا الرشد الذي لا يلابسه الغي، والحق الذي لا يلتبس بالباطل هو البينة.

(١) الفاتحة: ٦ ـ ٧.

وفي القرآن الكريم: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾[1]، والبينة كالنور، ظاهرة في نفسها وفي نفس الوقت مظهرة لغيرها.

وإذا انطلق الإنسان من البينات التي جعلها الله تعالى في حياة الناس في ظلمات الأفكار والمذاهب والأهواء لا يلتبس عليه الحق والباطل في مسلسل الأفكار والأشخاص.

والأخذ بـ(البيّنة) يعصم الإنسان من الضياع والتيه، ويحفظ الإنسان على الصراط المستقيم، بخلاف إتباع الهوى والأخذ بالهوى، فإنه يصرف الإنسان عن البينات، ويضلّل الإنسان في متاهات الهوى، يقول تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ﴾[2].

مضلاّت الفتن:

وفي مقابل (الفرقان) الذي يفرز الحق عن الباطل تقع

(١) الأنعام: ٥٧.

(٢) محمد: ١٤.

(مضلات الفتن)، وفي (مضلات الفتن) يختلط الحق بالباطل في نفس الإنسان، وهي تصيب مجتمعات، وتخطئ أخرى كما يقول أميرالمؤمنين عليه السلام في الفتنة: «إن الفتن تحوم كالرياح، يصبن بلداً ويخطئن أُخرى».

وهذه الإصابة والعدول تتبع سنناً إلهية دقيقة وثابتة، فقد يعصم الله تعالى مجتمعاً عن الفتنة، وقد يأذن الله تعالى للفتنة أن تدخل في مجتمع من أوسع أبوابه... وليس في ذلك شيء من العقوبة، ولا يحدث شيء من ذلك صدفة.

فإذا حلّت الفتنة بقوم سلبتهم بصائرهم إلاّ من عصم الله تعالى.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «ليغشين من بعدي فتن كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويُمسي كافراً، ويُمسي مؤمناً، ويصبح كافراً، يبيع أقوام دينهم بعرض من الدنيا قليل[1]، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «ستكون فتن يصبح الرجل فيها مؤمناً، ويُمسي

(١) كنز العمال ح ٣٠٨٩٣.

كافراً، إلاّ من أحياه الله تعالى بالعلم»[1].

وقد عاش أمير المؤمنين عليه السلام فترة من أقصى هذه الفترات، وشهد ولادة الفتن التي أضرّت الإسلام والمسلمين كثيراً وكان يقول عليه السلام: «ألا أن أخوف فتنة عندي عليكم فتنة بني أمية»[2].

ومن هذه الفتن فتنة الخوارج التي كانت تركيباً معقداً لمجموعة من الفتن من ردود الأفعال والأفعال... انتهت إلى وقعة (النهروان) الموجعة التي آلمت الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أكثر مما آلمته صفين لأن ضحايا هذه الفتنة كانوا ضحايا الجهل، ولم يكونوا من هواة السلطة والمنافسة في الحكم، كما كان الأمر في صفين.

وإذا أقبلت الفتن انقلبت البصائر فلم يعد يبصر الإنسان من حوله شيئاً من الحق والباطل إلاّ من عصم الله ويفقد الإنسان الرؤية، يقول أمير المؤمنين عليه السلام ـ وهو الخبير بالفتنة ـ: «أيها

(١) كنز العمال ح ٣٠٨٨٣.

(٢) كتاب الغارات ١: ٦.

الناس، أنا فقأت عين الفتنة، ولم يكن أحد ليجترئ عليها غيري...

فقام إليه رجل، فقال: يا أمير المؤمنين حدثنا عن الفتن، فقال عليه السلام: إن الفتن إذا أقبلت شبّهت، وإذا أدبرت نبّهت، يشبّهن مقبلات، ويعرفن مدبرات»[1]. وهذه أهم خصوصية في الفتنة، إذا أقبلت يفقد الإنسان الرؤية، ويلتبس عليه الحق والباطل (شبهت) فلا يميز أيهما الحق وأيهما الباطل، وإذا أدبرت انتبه الإنسان، وعاد إليه ما فقده من رشده ووعيه (نبهت).

كيف يعمل الإنسان في الفتنة؟

كيف يعمل الإنسان في الفتنة حتى يسلم منها؟ يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «كن في الفتنة كابن اللبون، لا ظهر فيركب، ولا ضرع فيحلب»[2]، وليس معنى ذلك أن يعتزل الإنسان الساحة في الفتنة، وليس السلامة من الفتنة بالانسحاب من الساحة والعمل، وإنما معنى ذلك أن لا يعطي الإنسان من نفسه شيئاً

(١) المصدر السابق.

(٢) الكلمة الأولى من باب المختار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة.

للفتنة، وهذا أحد وجهي القضية، والوجه الآخر العمل لمكافحة الفتنة ومقارعتها، والوقوف إلى جنب أولئك الذين يقفون في وجه الفتنة، ومن لا يكافح الفتنة يؤيدها ويسندها لا محالة.

وليس للإنسان بد من واحد من هذين: إمّا مكافحة الفتنة أو الاستسلام لها ولا يصح ما كان يرى بعض الضعفاء من المسلمين عندما اندلعت الفتنة أن (الجالس فيها خير من القائم والنائم فيها خير من الجالس)، فإن هؤلاء الجالسين لا محالة يقعون في شرك الفتنة عن علم أو عن غير علم.

عوامل الفرقان في النفس:

وللسلامة من مضلاّت الفتن جعل الله تعالى للإنسان أكثر من معاذ يلوذ به من الفتنة، ويمكنه من التفريق بين الحق والباطل.

والمعاذ الأول هو الله تعالى، فإن الله عز وجل يعيذ عبده إذا استعاذ به من مضلاّت الفتن.

وقد ورد في الدعاء: (وأعوذ بك من مضلاّت الفتن)، فإذا استعاذ العبد بربه، واعتصم به، هداه الله إلى الصراط المستقيم

وجعل الله تعالى له نوراً يمشي به في الناس. قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً﴾[1].

وهذا النور الذي يرزق الله الإنسان إذا اعتصم به ولجأ إليه، ينير للإنسان طريق حركته في المجتمع، فيميز به المؤمن عن المنافق، والقوي عن الضعيف، والصادق عن الكاذب، وهذه خاصية النور الذي يمشي به الإنسان في الناس. يقول تعالى: **﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾**[2].

وقد أمرنا الله تعالى أن نعوذ به، ونلجأ إليه كلما داهمتنا ظلمات الضلال والفتن.

(١) النساء: ١٧٤ ـ ١٧٥.

(٢) الأنعام: ١٢٢.

يقول تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾[1].

والمعاذ الثاني في النفس التقوى، والتقوى معاذ وفرقان لمن يتحصن به.

فإذا حصّن الإنسان نفسه في حدود الله تعالى ولم يتجاوز حدود الله تعالى في قول أو فعل عصمته التقوى من الضلال والفتنة، وطردت عنه الشيطان وبصّره الله تعالى بكيد الشيطان ومكره فلا يتمكن منه الشيطان، ولا يستطيع أن يكيد أو أن يمكر به ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[2].

ويرزقهم الله تعالى نوراً يهتدون به في حياتهم وسعيهم، نوراً يمشون به في الناس، فيميزون به الصادق عن الكاذب والمؤمن عن المنافق ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ

(1) الفلق: ١ ـ ٣.

(2) الأعراف: ٢٠١.

كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ﴾[2].

والتقوى في نفس الإنسان فرقان بين الحق والباطل والهدى والضلال ﴿يِا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً﴾[3].

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «اعلموا أنه من يتق الله يجعل له مخرجاً من الفتن ونوراً من الظلم»[4].

ومن التقوى مخالفة الهوى فإذا حلّت الفتنة بالإنسان، ووقع في شرك الفتنة، فخالف هواه، كلما تردد بين أمرين يميل إلى أحدهما ويرغب عن الآخر... جعل الله تعالى له من تلك الفتنة فرجاً ومخرجاً، ورزقه بصيرة يهتدي بها.

(1) الحديد: ٢٨.

(2) البقرة: ٢٨٢.

(3) الأنفال: ٢٩.

(4) نهج البلاغة: خطبة رقم ١٨٣.

وقد روي عن الكاظم موسى بن جعفر عليه السلام: «إذا حزبك أمران، لا تدري أيهما خير وأصوب، فانظر أيهما أقرب إلى هواك فخالفه، فإن كثير الصواب في مخالفة هواك»[1].

والمعاذ الثالث الإخلاص فإن الشيطان لا سلطان له على عباد الله (المخلصين) ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إلاّ عبادك منهم المخلصين﴾[2].

وعن رسول الله ﷺ: «طوبى للمخلصين أولئك مصابيح الهدى، تنجلي عنهم كل فتنة»[3].

والمعاذ الرابع القرآن، فإن القرآن فرقان بين الحق والباطل، فإذا اعتصم الإنسان بالقرآن، واهتدى به جعل الله تعالى له في نفسه فرقاناً بين الحق والباطل ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾[4].

(١) بحار الأنوار ٧٨: ٣١٤.

(٢) الحجر: ٣٩ ـ ٤٠.

(٣) الترغيب والترهيب ١: ٥٤.

(٤) البقرة: ١٨٥.

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ * من قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾[1].

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾[2].

٢ ـ الفرقان في المجتمع

اللبس والتشابك في المجتمع:

وقد يكون اللبس والتداخل بين الحق والباطل في المجتمع، وليس في النفس فقط، فيجمع المجتمع الجميع تحت غطاء الصلاح والتقوى والإسلام الصادق منهم والكاذب، والمؤمن والمنافق، والقوي والضعيف، والصالح والفاسد، ويباري الكاذب الصادق في الصدق، ويباري المنافق المؤمن في الإيمان، ويباري الضعيف القوي في القوة.

وأكثر ما يحدث هذا الخلط واللبس في المجتمع في أوقات اليُسْر والعافية، حيث تبرز العناصر الضعيفة في صفوف المؤمنين

(١) آل عمران: ٣ ـ ٤.

(٢) الفرقان: ١.

ويحتلون المواقع الأمامية من هذه الصفوف، ويختلط المؤمن بالمنافق، حتى لا يمكن تمييز هذا من ذاك. يقول تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ منكُمْ وَالْقَائلينَ لإِخْوَانهمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاّ قَليلاً * أَشحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذي يُغْشَى عَلَيْه منَ الْمَوْت فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بأَلْسنَة حدَاد أَشحَّةً عَلَى الْخَيْر أُوْلَئكَ لَمْ يُؤْمنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلكَ عَلَى اللَّه يَسيراً﴾[1].

إن اليسر والعافية من العوامل التي تجعل هذا الخليط الإنساني غير المتجانس في صف واحد وتحت مظلة التقوى والصلاح.

والشدة والابتلاء والخوف من العوامل التي تفرز بعضهم عن بعض فيتقدم المؤمنون الصادقون ويتأخر المنافقون والكاذبون.

فرقان في الآخرة:

والفرقان بين الناس اثنان: في الدنيا والآخرة، فليس في الحياة الآخرة لبس وخلط كما في الحياة الدنيا...، إن الدنيا دار لبس

(١) الأحزاب: ١٨ ـ ١٩.

وخلط، والآخرة دار فصل وفرز.

يقول تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾[1]، ويقول تعالى عن حياة الآخرة: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾[2]، فلا يتمكّن يومئذ أحد من إخفاء سريرته، وستر باطنه، يومئذ يظهر الناس على حقائقهم وهذا هو الفرقان في الآخرة وفي الدنيا كذلك فرقان.

فرقان الدنيا:

وفي الدنيا فرقانان يفصلان الناس بعضهم عن بعض، ويفرزان الصادق عن الكاذب، والمؤمن عن المنافق، هذان الفرقانان يومان، هما يوم (الفتنة)، ويوم (الخوف). في هذين اليومين يتميز الناس بعضهم عن بعض.

الفتنة والخوف:

في يوم الفتنة، تتمكن الفتنة من عقول الناس، وتغلب على نفوسهم وأفكارهم وتسلب منهم الرؤية والبصيرة، فيلتبس عليهم

(١) يس: ٥٩.

(٢) الطارق: ٩.

الحق بالباطل، ويلتبس عليهم أهل الحق بأهل الباطل، فلا يميزون هؤلاء عن أولئك، ولا هذا عن ذلك، ولكن الفتنة تفرز قلة،يعصمهم الله تعالى عنها، ويرزقهم بصيرة نافذة، فيقفون إلى جانب الحق، وان قلّ أهله ورواده، ويقارعون الباطل وإن كثر أهله.

ومن العجب أن (الفتنة) تخلط الحق بالباطل في نفوس عامة الناس، كما ذكرنا من قبل في الحديث عن اللبس في النفس والرؤية، ولكنها في نفس الوقت تفرز فئة قليلة من الناس يرزقهم الله بصيرة ووعياً، ويعصمهم الله تعالى من الفتنة، ويرزقهم عزماً وقوة.

وقد كانت أيام (الجمل) و(صفين) و(النهروان) و(الطف) أيام فتن في تاريخ الإسلام.

وبلغت عتمة هذه الفتن في رؤى الناس ونفوسهم يومئذ حداً لم يَعُد الناس يميزون معها بين علي والحسن والحسين من جانب وبين معاوية ويزيد من جانب آخر.

وقد عَمَدَ بنو أمية إلى تعميق هذه الفتنة في نفوس الناس

وتضليلهم وتعتيم الرؤية لديهم إلى حدود مخيفة.

وكان أبلغ هذه الفتن وأقواها يوم الطف، حيث وقف الإمام الحسين﵇ ومعه كوكبة محدودة من أهل بيته وأصحابه في مقابل سلطان بني أمية وملكهم الواسع، ووقف معهم جماهير الناس يومئذ، ويعجب الإنسان أن تنفذ الفتنة هذا النفوذ العميق في قلوب الناس، فلا يستجيب لدعوة الحسين﵇ إلى الخروج على سلطان بني أمية وغيهم يومئذ غير اثنين وسبعين نفرا من المسلمين... رغم حرص الحسين﵇ وإصراره على دعوة المسلمين يومئذ إلى الخروج على يزيد وإنهاء هذه الفتنة التي عمّت العالم الإسلامي، وأفسدت على الناس دينهم وأخلاقهم.

وليس يضر إمام الحق أن يقف في الفتنة بهذا الجمع الصغير.. فقد وقف من قبله إبراهيم﵇ رائد التوحيد وأبو الأنبياء وحده في الفتنة التي ألقوه فيها في النار، فجعلها الله تعالى عليه برداً وسلاماً.

يقول تعالى: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ**

الْمُشْرِكِينَ﴾[1]، كان إبراهيم عليه السلام يومئذ لوحده أمة موحداً لله تعالى، يعبده ولا يشرك به.

وقد سمى الله تعالى يوم بدر بيوم الفرقان، حيث وقف عدد قليل من المسلمين في الساحة أمام كل قوى الشر في العالم. يقول تعالى: ﴿**يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ**﴾[2].

واليوم الآخر للفرقان في المجتمع يوم الخوف والضراء. فإن الأمن والعافية يخلطان الناس والخوف والابتلاء يفرزان الناس، ﴿**فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ**﴾.

إن النواة الصلبة للمجتمع الإسلامي في صدر الإسلام تكونت في ضراء مكة وبأسائها، فنصرهم الله تعالى في (بدر)، وبعد أن أخذتهم نشوة النصر والتحق بهم من لم تكسبه أيام البأساء والضراء هذه الصلابة والقوة هزمتهم قريش في (أُحد).

(١) النحل: ١٢٠.

(٢) الفرقان: ٤١.

نتائج الفرقان:

وللفرقان بين الحق والباطل في المجتمع وفي النفس نتائج وآثار كبيرة، فإن نصر الله تعالى ينزل على المؤمنين عندما تخلص جماعتهم من العناصر الكاذبة والمنافقة والضعيفة، وبعكس ذلك ينفذ الشيطان في النفس والمجتمع عندما يختلط الحق بالباطل، يأخذ ضغثاً من هذا وضغثاً من ذاك، كما يقول أميرالمؤمنين عليه السلام فيخدع الناس ويضللهم به.

فإذا خلص الحق من الباطل في النفس والمجتمع استنزل الحق رحمة الله تعالى، فإن الله تعالى ينصر المؤمنين بالحق، ويرزقهم بالحق، ويؤلف بين قلوبهم بالحق، ويوحّد صفهم بالحق ويعزّهم بالحق.

وأن (الحق) يستنزل من رحمة الله تعالى نوره ورزقه ما لا يستنزله شيء أخر، وقد ورد في دعاء الافتتاح: (اللهم ما عرفتنا من الحق فحملناه، وما قصرنا عنه فبلغناه. اللهم المم به شعثنا، واشعب به صدعنا، وارتق به فتقنا، وكثّر به قلتنا، واعزز به ذلتنا،

واغني به عائلنا، واقض به عن مغرمنا، واجبر به فقرنا، وسد به خلتنا، ويسّر به عسرنا، وبيّض به وجوهنا، وفك به أسرنا، وانجح به طلبتنا، وأنجز به مواعيدنا، واستجب به دعوتنا، وأعطنا به سؤلنا، وبلغنا به من الدنيا والآخرة آمالنا، وأعطنا به فوق رغبتنا).

إن الحق إذا خلص من الباطل في النفس وفي المجتمع، كان من أعظم منازل رحمة الله تعالى فيعزّ الله تعالى به المؤمنين، ويحفظهم وينصرهم، ويعزهم، ويرزقهم به، وييسر به أمورهم، وينجح به طلباتهم، ويرزقهم به كل ما يرغبون، ويرزقهم به فوق ما يرغبون.

الفرقان والتمحيص في آيات آل عمران:

والآن نتوقف قليلاً عند هذه الآيات المباركات من سورة آل عمران، لنجد كيف يجعل الله تعالى أيام البأساء والضراء فرقانا في حياة الناس، يقول تعالى: ﴿**وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ**

وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[1].

وهذه الآيات نزلت بعد نكسة أحد، ونكسة (أحُد) أقسى نكسة وأمرّها في حياة المسلمين في الصدر الأول من الإسلام.

وتحول هذه الآيات، هذه النكسة المرّة في حياة المسلمين إلى قوة واستعلاء، وتنتزع منها الخوف والوهن ﴿**وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ**﴾، وهو انقلاب عجيب في ماهية الأحداث، حيث تتحول النكسة إلى استعلاء، ويتحول الوهن والخوف إلى قوة وأمن.

وعامل الانقلاب هو (الإيمان) ﴿**إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾.

ثم تذكرهم الآيات الكريمة أن ما أصابهم من القروح في المعركة هي من متطلبات المعركة والمواجهة.

ولما كانت المواجهة مع أئمة الكفر قضية حتمية من قضايا

---

(١) آل عمران: ١٣٩ ـ ١٤٢.

الدعوة إلى الله، فإن ما أصابهم من القروح في المعركة يدخل في حتميات الدعوة إلى الله وليس منها بد. ولكن مع ملاحظة نقطتين:

الأُولى: إن ما أصابهم من القروح أصاب أعداءهم كذلك ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾

وهذه هي النقطة المشتركة بين الحزبين.

والنقطة الثانية: هي التي يختص بها حزب الله دون حزب الشيطان وتشير إليها الآية: ١٠٤ من سورة النساء: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ﴾.

ثم تقرر الآية الكريمة إن هذه النكسة وتلك النشوة وهذه الهزيمة وذلك الفوز أجزاء من حركة التاريخ، وفي هذه الحركة يداول الله تعالى أيام النصر والنكسة بين الناس، ومن خلال ذلك يدير الله تعالى حركة التاريخ ﴿وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ إلاّ أن العاقبة دائماً في هذه المداولة للمتقين، ولن تتغير هذه

النتيجة، مهما كانت النكسة مرّة أيام النكسة ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

وبعد هذه الحقائق يأتي دور الفرقان. إن هذا التداول في الفوز والنكسة ونشوة الفوز ومرارة النكسة، ﴿وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾، والله تعالى يعلم من دون ذلك من دون ريب، والمقصود ليفرز الله الذين آمنوا حق الإيمان عن الذين لم يؤمنوا حق الإيمان، وليفصل الله الذين صدقوا عن الكاذبين، والذين ترسّخ الإيمان في قلوبهم وصدورهم عن الذين أخذوا الإيمان عارية موقتة.

إن القروح التي أصابت المسلمين في معركة أحد كان لابد منها لفرز هؤلاء من أولئك ﴿وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾، وهذا هو التمحيص على الخط الأفقي في المجتمع، والفرقان الأول في المجتمع ومن دون التمحيص على والفصل والفرقان في المجتمع

(١) الأعراف: ١٢٨.

لا تستطيع هذه الأمة أن تستلم دور القيمومة والإمامة على وجه الأرض، ولا يمكن أن يتخذ الله تعالى منهم شهداء وقيّمين على حياة الناس، ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾. فإن الله تعالى لا يتخذ الشهداء من الظالمين فإذا دخلت الأمة التمحيص، وخضعت للفرقان، وانفرز فيها المؤمنون الصالحون عن غيرهم، عندئذ يتخذ الله منهم شهداء.

وإذا كان هذا التمحيص والفرقان تمحيص في سطح المجتمع (على الخط العمودي)... فإن الله تعالى يريد بهذه القروح تمحيصاً وفرقاناً آخر (على الخط الأفقي) داخل النفوس ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾.

وهذا التمحيص تمحيص في العمق، وداخل النفوس ففي نفوس المؤمنين أيضاً يقين وشك، وصلاح وضلال، وصدق وكذب وقوة وضعف، وتقوى وفجور، وتوحيد وشرك، والله تعالى يريد للمؤمنين التمحيص، حتى يطرد من نفوسهم الشك، والضلال، والكذب، والضعف، والفجور، والشرك، وتخلص

نفوسهم من ذلك ويكون لهم اليقين، والصلاح، والصدق، والقوة، والتقوى، والتوحيد، نقيا خالصاً من كل شوب.

وكما لا تخلص ذرات الذهب المشوبة بالتراب إلاّ عبر المرور بدرجة عالية من الحرارة لتنفصل فيها ذرات التراب عن المعدن ويخرج المعدن نقيّاً من وسط التراب العالق به، كذلك لا تصفو نفس الإنسان إلاّ من خلال قروح الضراء والبأساء التي يمرر الله تعالى المؤمنين من خلالها.

ولا تختص هذه المعاناة بالمؤمنين، فإن هذه القروح كما قال الله تعالى تصيب هؤلاء وأولئك على نحو سواء ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾.

إلاّ أنها للمؤمنين نقاء وتمحيص، وللكافرين محق وهلاك ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾. وشتّان بين معاناة ومعاناة، معاناة تؤدي إلى التمحيص وأخرى تنتهي إلى السقوط والمحق.

ثم تشير الآية الكريمة إن كلّ هذا التمحيص ليصلح المؤمنين للجنة، فإن الجنة دار السلام ودار الطيبات، ولا يدخلها إلاّ

الطيب، فإذا كان في نفوس المؤمنين تقوى، وفجور، وتوحيد، وشرك، وصدق، وكذب، فلابد أن يذهب من نفوسهم هذا الخليط السيئ من الشرك والكذب والفجور، لتخلص الطيبات في نفوسهم من الخبائث. . عندئذ يدخلون الجنة التي أرادها الله تعالى لهم. **﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾**[1].

وهذا هو التمحيص والفرقان الثاني داخل نفوس المؤمنين، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) آل عمران: ١٤٢.

الفهرس